المحاضرة الثالثة المبحث الثاني

دولة المدينة في إسبرطة

النظام الإسبرطي :يعد نظام دولة – مدينة إسبرطة حالة مميزة ومختلفة بين مجموعة نظم دول المدن الإغريقية ، ولعل أبرز اختلافاته وأكثرها عمقا وأهمية تلك التي ميزت بينه وبين نظام دولة – مدينة أثينا ليصبحا على طرفي نقيض بفعل التعارض الكلي بينهما .فقد كان النظام الديمقراطي الأثيني مناقضاً كلياً لنظام إسبرطة الأرستقراطي والروح الحضارية الأثينية القائمة على قيمية مثالية عارضتها نزعة إسبرطة العسكرية وميلها إلى القوة والتوسع ، فجاءت الحرب بين النظامين ترجمة عملية لهذا التعارض وتجسيداً واقعياً له .وقد استمرت تلك الحرب المعروفة ب 'حرب البيلوبونيز " حوالي ثلاثين عاما وانتهت بهزيمة الديمقراطية الأثينية ونزعتها القيمية المثالية أمام الأرستقراطية الإسبرطية ونزعتها العسكرية ، وقد شعر الأثينيون بعد هذه الهزيمة ، ومعهم عامة الإغريق، بالحاجة إلى إعادة النظر في الكثير من ثوابتهم القيمية حتى بات بالإمكان النظر إلى انتصار النظام الإسبرطي على أثينا بوصفه أحد العوامل الأساسية التي ساهمت في تحديد طبيعة الفكر السياسي اليوناني القديم .وكان تأثير إسبرطة في العقل اليوناني ذا طبيعة مركبة ، فهو أثر مرتبط بالحقائق الواقعية بفعل انتصارها على أثينا من جهة ، وهو من جهة ثانية أثر مرتبط بالخيال لإضفاء العقل الإغريقي خصائص خيالية على إسبرطة ونظامها وحياتها مما ترك أثره في حياة وفكر افلاطون ودولته المثالية ونظريته السياسية التي أثرت بدورها في أفكار من تلاه من فلاسفة اليونان ونظرياتهم السياسية .

لقد عاشت إسبرطة بعضا من تقاليد المجتمع اليوناني القديم السياسية والاجتماعية مثلما كان لها تقاليدها الخاصة بها ، فقد عرفت هي الأخرى فكرة التمثيل النيابي في مؤسسات السلطة والتشريعات القانونية المنظمة للحياة السياسية والاجتماعية ، وتمتع مواطنيها وهم الفئة المحاربة بحقوق مدنية وسياسية خاصة ، واستندت حياتها الاقتصادية إلى نظام العبودية /الرق ، وكان فيها تجار أجانب لهم حقوق مدنية دون الحقوق السياسية .لكنها تميزت أيضا بدستورها ذو الطبيعة الأرستقراطية التي تجمع بين الروح القتالية العسكرية ومحاولة تحقيق التضامن والرضا لدى شعب

تميز بجديته وعمليته وروحه العسكرية الصلبة ، ونظام الحكم الملكي الوراثي الذي انفردت به إسبرطة والقائم على سلطة مزدوجة لملكين في آن واحد من أسرتين مختلفتين بحكمان في الوقت نفس بالوراثة وبسلطة متوازنة ومتوازية تسمح لهما بقيادة الجيش مع مستشارين يتولون الإدارة . والتفاوض مع الاعداء

لذلك ولكي نفهم افلاطون بل لكي نفهم الكثير من الفلاسفة المتأخرين لابد لنا من معرفة شيء عن إسبرطة .فقد كان لهذه المدينة على الفكر اليوناني أثر مزدوج كما مر آنفاً :أثر ناشيء عن الحقائق ، وأثر آخر عن صور خيالية ، ولكل من الأثرين خطره .فأما الحقائق فهي التي مكنت الاسبرطيين من هزيمة اثينا في الحرب ، وأما الصورة الخيالية فهي التي أثرت في افلاطون حين كتب نظريته السياسية ، وأثرت في عدد لا يحصى من الكتاب ، بعد ذلك ، حين وضعوا نظرياتهم السياسية .ولم تخرج إسبرطة عن تقاليد المجتمعات اليونانية القديمة من حيث الارتباط بالقوانين وبدرجات من التمثيل النيابي في التنظيمات السياسية التي كانت تتولى شؤون الحكم والادارة ، وكان دستور المدينة تزاوج بين الروح العسكرية التي استلزمتها ظروف اسبرطة السياسية ومعاملاتها جيرانها وبين محاولة تحقيق التضامن والرضى لدى شعب جاد محارب .المجتمع الأسبرطي – كالمجتمع ، الاثيني – كان ينقسم إلى ثلاث طبقات رئيسة هي:

العبيد :قاعدة البناء الاجتماعي من حيث المكانة أو المركز الذين يؤدون كافة الاعمال اليدوية دون . أن يكون لهم نصيب من التمدن او من ممارسة العمل السياسي

. طبقة التجار الوسطى الذين كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية دون الحقوق السياسية

وهناك طبقة المواطنين الاسبرطيين المنحدرين من سلالة المحاربين الغزاة المحتكرين للحياة السياسية . والنشاط السياسي والعسكري ، والمترفعين عن اداء اية اعمال اخرى

اما بالنسبة لنظام الحكم فان نظام اسبرطة كان نظام متميزة ، فهو يقوم)ومنذ حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد (على اساس وجود ملكين ومجلس الشيوخ ، وجمعية عامة للشعب ، وعدد من : المستشارين ، فلنتعرف على هذه المؤسسات السياسية

نظام الملكين :هذا النظام انفردت به اسبرطة .اذ كان بها ملكان ينتميان إلى أسرتين مختلفتين ، وكلاهما يتولى الملك بالوراثة ، ويتمتعان بسلطات متعادلة :نها بتوليان قيادة الجيش أبان الحرب مستعينين بمستشارين يضطلعون بمهام الادارة واجراء مفاوضات الحرب مع الأعداء .كما ويترأس الملكان الطقوس والشعائر الدينية في العبادات الرسمية للدولة ، ويقومان بالفصل في المنازعات التي قد تنشب بين الأمراء والنبلاء ايضا .اما في وقت السلم فكان لسلطانيها حدود معينة .

٢- مجلس الشيوخ يتكون هذا المجلس من الملكين بالاضافة إلى ثمانية وعشرين عضوا من أبناء الطبقة الأرستقراطية يختارهم الشعب بالانتخاب لمدى الحياة .ويشترط في العضو ان يكون ممن جاوز الستين عاما من العمر .اما وظائف هذا المجلس فقد تحددت في الفصل في القضايا الجنائية واعداد الاعمال والمشاريع للجمعية العامة ،، ومناقشة المشروعات التي ستعرض على تلك الجمعية اضافة إلى قيامه بمهام الادارة الروتينية من تصريف شؤون الدولة والاشراف :على النشاط التجاري ..

٣- الجمعية العامة للشعب تتكون هذه الجمعية من مواطني اسبرطة جميعا .وهي تجتمع دورية كل شهر وكذلك في الأحوال الطارئة بناء على دعوة من المستشارين الذين يحق لهم رئاستها .وتضطلع الجمعية العامة للشعب بمهمة انتخاب كل من يتولى الوظائف العامة في الدولة واقرار كل شؤون الحرب والسلم فيها ، والفصل بكل مايعترض مسألة تولي العرش .من ظروف وملابسات .

4- المستشارون إلى جانب الهيئات الثلاث السابقة كانت توجد هيئة رابعة في الحكومة اختصت بها اسبرطة وحدها هي والمستشارون الخمسة ، الذين كانوا ينتخبون من مجموع المواطنين بالاقتراع المباشر ، وبعد ترشيحهم وتزكيتهم من قبل مجلس الشيوخ .وهيئة المستشارين هذه كانت بمثابة عنصر اريد به احداث توازن مع سلطات الملكين .ففي كل شهر بقسم الملكان يمينا بالمحافظة على الدستور فيقسم المستشار بالمقابل ، يمينا بتأييد الملكين ماداما عند قسميها في التعهد بالمحافظة على الدستور ، ويعتبر المستشارون بمثابة محكمة مدنية عليا لها الحق في الحكم على الملك جنائية وتتمتع هذه الهيئة ايضا بحق دعوة الجمعية العامة للشعب للانعقاد ومتابعة قراراتها للتأكد من تنفيذها ، وحضورها اجتماعات مجلس الشيوخ ورئاسة جلساته احيانا .وباختصار ان على .

المستشارين المحافظة على نظام الدولة في الداخل والخارج ، وقد وصلت سلطتهم الى حد استخدام البوليس السري لمراقبة الموظفين وتنفيذ قرارات الدولة .كما كانوا يبعثون بجواسيسهم إلى المدن المجاورة لتبع الأخبار وتأمين اسبرطة ضد أي عدوان أجنبي .وبالنسبة للحياة العامة في اسبرطة فانها كانت أشبه بالحياة العسكرية .فلم يكن للمواطن الأسبرطي إلا عمل واحد هو الحرب التي كان يعد لها منذ ولادته .ذلك لأن رؤساء القبائل كانوا يفحصون المواليد ، ليلقوا في العراء من كانت به علة و ولا بالبقاء إلا لمن يرونه قوية .وكان الذكور يعيشون بصورة جماعية في مدرسة مشتركة حتى سن العشرين ، والهدف من ذلك هو تأهيل رجال اقوياء لا يهابون الالم ويخضعون للنظام . ومن سن العشرين ، وحتى سن الثلاثين تبدأ الخدمة العسكرية الحقيقية ، وتصبح العضوية في نادي او معسكر أمراً اجبارياً ، اما بعد سن الثلاثين فيصبح المواطنون كاملي الأهلية باعتبارهم مكتسبين الجنسية اسبرطة طبقا لميلادهم المحقق ، ومتدربين ومتعلمين طبقا لمناهج الدولة ، ومكتسبين لعضوية نواديها ومعسكراتها .وطبقا لقوانين اسبرطة فان المواطن فيها لم يكن له حق التعامل في التجارة أو إمتهان الحرف .فعلى المواطن أن يعيش على اقطاعيته وما تنتجه له .كما لم يكن يسمح لأحد أن يملك ذهبا أو فضة ، وكان المال يصنع من حديد حتى لقد ذهبت الامثال ببساطة العيش عند الاسبرطيين .

من خلال مقارنة منهج التعليم في كل من اثينا واسبرطة نجد أن الهدف منها كان مختلفة في احداهما عنه في الاخرى :فبينا كان هدف التعليم في أثينا هو تكوين المواطن المتكامل الملم إلى جانب المهارة العسكرية والرياضية بفنون الموسيقى والبلاغة الخطابية التي تمكنه من آن يكون ذلك المواطن القادر على الاقناع في ثقة من نفسه وعلمه ، كان هدف النظام التربوي الأسبرطي هو صنع الجندي المقاتل ذي الصفات الخشنة والارادة الصلبة التي تمكنه من دحر عدوه في أي لقاء معه فكل شيء في اسبرطة يتجه صوب اعداد اناس محاربين :رياضة بدنية كثيفة ، تمارين عسكرية ، , موائد مشتركة ، إنضباط في كل اللحظات ...النتيجة :تصبح اسبرطة منظمة عسكرية قادرة مشغوفة باستقلالها ، واكثر شغفة ببسط سيطرتها الأرضية هذا يعني ان فلسفة المدينتين السياسية والاجتماعية كانت مختلفة ، ومن ثم فأن الترقب لحدوث احتكاك بينها كان متوقعة .وبالفعل تفجر الصراع بين الدولتين بشكل حروب طويلة عرفت باسم حروب البلوبونيز كانت الغلبة فيها لذلك

المجتمع الذي شدد على القيم العسكرية)مجتمع اسبرطة (وليس للمجتمع الذي دعا إلى خلق المواطن المتكامل دون التأكيد على النواحي العسكرية بالذات)مجتمع اثينا . (فالمثاليات ، تبعا لذلك ، لم تجدر كثيرة بقدر ما كان القوة السلاح والتدريب والمهارة والخشونة من قوة فصل في تحقيق النصر .هذه الافكار وتلك التنظيمات السياسية التي سادت المدن اليونانية تدفعنا إلى القول بان الحضارة اليونانية قد انفردت بخصائص تجعلها متميزة عن غيرها من الحضارات الأخرى ، ومن هذه الخصائص :

1- عدم قدرة الجماعة اليونانية التعبير عن اية وحدة نظامية ، فهذه الجماعة كانت مكونة من عدد لاحصر له من المدن اليونانية كل منها ملك وجودها الذاتي واستقلالها المطلق ، ورغم ذلك فجميع هذه المدن تنتمي الى وحدة حضارية واحدة بل يبلغ التعارض في بعض الأحيان ، من الوجهة النظامية ، حد يصعب معه تصور آي وحدة حضارية .ومع ذلك ، حتى في تلك الحالات ، فان الوحدة الحضارية لا موضع للنقاش فيها .يكفي أن نتذكر في هذا المضمار مدينتي أثينا واسبرطة .

آن تعدد صور نظام الحكم في المدن اليونانية قد أتاح ميداناً للملاحظة والمشاهدة قلما أتيح له نظير في أي جماعة سياسية أخرى قبل القرن التاسع عشر .هذا التعدد النظامي كان مصدرة مباشرة لنوعين من انواع التحليل السياسي :فهو مصدر للمنهاجية المقارنة وذلك بالنسبة للباحث المتجرد عن الحقيقة السياسية الذي لا يشارك في الاحداث ولا يريد أن يرتبط بها)أرسطو . (وهو ايضا ، مصدر لتساؤلات من نوع آخر :لماذا التعدد النظامي رغم الوحدة الحضارية ؟ بعبارة أخرى لماذا لاتمتد الوحدة الحضارية لتعبر ، ايضا ، عن وحدة نظامية ؟ .هكذا كان حال ايسوقراط في تحليله للوجود السياسي

3- أن الخبرة اليونانية كانت متعددة النواحي متشابكة المسالك ، والمؤرخ الذي يتعرض لتفسير تاريخها السياسي لايستطيع ان يحصر نفسه في تطورات الأفكار السياسية التي قدمها الفلاسفة اليونان فالى جانب الفكر السياسي نجد أن النظم السياسية ذاتها نكون عنصرا مهما من عناصر الخبرة السياسية .ذلك أن فيلسوف السياسة عندما يحكم على صورة معينة بالفساد او الصلاح انما كان يعبر ، بطريقة شعورية أولا شعورية ، عن خبرة تجريبية معينة يصوغها في قالب نظري محددة

موقفا هجومية أو سلبية ازاء تلك الصورة النظامية .وتزداد اهمية ذلك بالنسبة للمفكر الذي يشترك اشتراكاً فعلياً في الحياة السياسية .وهكذا ، فان المدرسة اليونانية تضيف الى جانب الفكر السياسي والتنظيم السياسي العلاقات المتبادلة بين كلا الناحيتين :كيف اثر الفكر السياسي في النظم . السياسية فكان مصدرة لنظم جيدة ، وكيف تحدد الفكر السياسي بين النظم السياسية من حيث اطاره النظامي الذي بنى حوله تأملاته الفلسفية ؟

واذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص فيمكن القول أن تلك المبادىء التي سادت المجتمع اليوناني وحظيت بقسط كبير من التطبيق العملي في مدينة اثينا – على وجه التحديد هي التي قامت على المبدأ الديمقراطى .غير انه يجب الانتباه إلى أن الديمقراطية الإغريقية وان كانت تماثل الديمقراطية الحديثة في بعض الجوانب ، إلا أنها بدون شك ، كانت تخالفها في اكثر من جانب :فديمقراطية اثينا تتفق مع الديمقراطية الحديثة حين تجعل السلطة في يد مجموع المواطنين وتعترف لهم بحرية التعبير عن آرائهم السياسية ، وتقر مبدأ المساواة بينهم ، وتقيم حكم الاغلبية مع الإقرار بحرية الرأي لجميع المواطنين ، وسيادة القانون والاقناع والاقتناع .لكن الديمقراطية الاثينية تختلف عن الديمقراطية الحديثة كونها تضيق نطاق المجتمع السياسي ولاتعترف بصفة المواطن الا لنسبة ضئيلة من مجموع السكان لاتتجاوز العشر ، اما ما عدا هذه النسبة فيدخل في عداد الأجانب والعبيد (، ولانها ديمقراطية تسلطية غير حرة تكتفي بالمظهر دون الجوهر فتصبح السلطة بيد الأفراد ثم لاتعترف لهم بحقوق او حريات قبل الجماعة .ومن ثم كانت الحرية في اثينا مقصورة على حرية الاشتراك في ادارة شؤون المدينة دون أن يكون للافراد الحريات المدنية الحديثة كالحرية الشخصية وحرية التملك وحرية العقيدة وحرية المسكن .فالديمقراطية اليونانية ، تبعا لذلك ، قدمت فكرة الحقوق . السياسية وليس تلك الخاصة بحقوق الأفراد